الفصل السابع

تحلق حشد الحراس والسائقين حول منشر التجفيف في غرفة غسيل المكتب، حيث كانت طباخة قصر سابقة عند صدام حسين تتولى غسيل ملابسنا. وأم حسين هذه، وهي ليست من أقارب الرئيس العراقي السابق، كانت أرملة وحيدة في الستينيات من العمر. ولدها الوحيد، حسين، مات بعد عشرة أيام من ولادته تاركاً أم حسين بلا أولاد ومنبوذة. أن يكون الإنسان امرأة في المجتمع العراقي لم يكن يعني سوى النمو، الزواج، فإنجاب عائلة بنين وبنات، يكبرون بدورهم ويتولون رعاية آبائهم وأمهاتهم. ومثل فلاح كانت أم حسين دائمة الإصرار على جعلي أُكْثِرُ من الأكل. كانت مقتنعة بأن سبب إخفاقي في الاهتداء إلى خطيب مقبول كان عائداً إلى كوني شديدة الهزال، وقد أرادت أن تجنبني مصيرها.

عندما التقيتها للمرة الأولى في أيار/مايو 2004، كانت أم حسين تعمل بوصفها إحدى الطباختين النهاريتين. كانت هي وأم محمد، ربة بيت في الخمسينيات من العمر، تأتيان إلى الشيراتون نحو الساعة الثامنة لقلي البيض، إعداد الشاي للفطور، وإعداد طعام الغداء لجهازي العاملين والمراسلين. وبعد جلي الأطباق والصحون وأخذ غفوة على الأريكة الموجودة في المطبخ أحياناً، كانتا

obeikandl.com

تعودان إلى منزليهما. لم يكن أحد يستطيع أن يستسيغ طبخ أم حسين. كانت هي وأم محمد تتناوبان على إعداد طعام الغداء، وكان السائقون والمترجمون يتذمرون لدى سماعهم أن أم حسين عاكفة على طبخ فاصولياء مدهنة في صلصلة حمراء، مقالي فرنسية رخوة، ومرقات غير منكهة. لحسن حظ أم حسين، لم يكن جهاز العاملين في قصر صدام يعرف القصر الذي كان سيفاجئه الرئيس السابق لتناول العشاء في هذه الليلة أو تلك من بين عشرات قصوره المرفهة. ونظراً لأن صداماً المصاب بداء البارانويا والمولع بالتكتم كان سريع التنقل بين مقرات إقامته، فقد كان احتمال تذوقه لطبخ أم حسين بعيداً إلى حد كبير.

وصلت أم حسين إلى **البوست** عن طريق كبير مترجمينا خالد الذي كان قد عمل في وزارة التخطيط في المعهد الصدامي. كان جسم أم حسين أشبه بلعبة ويبل غير أنها أثقل من أن تتزحزح. كانت تجرجر قدميها المخفيتين بذيل خراطتها الطويلة، وهي تتصبب عرقاً وتلهث. حين كانت تعانقني، كانت ترفعني عن الأرض وتحملني بضع خطوات وقد أصبحت أطول منها رغم قامتي البالغة خمس أقدام وثلاث بوصات فقط. ومع أن أم حسين كانت تستحق معاشاً تقاعدياً من الحكومة، فإن الإدارة العراقية الموقتة أضاعت أوراقها. وبوصفها عاملة قصور سابقة وبعثية مرتبطة بالنظام السابق، لم تكن أم حسين على قائمة المستخدمين المدنيين الذين كانت الحكومة الجديدة راغبة في التعويض عليهم. ذات صباح وجدتها باكية في المطبخ بعد أن تشاجرت مع أحد حراس الأمن خارج مكتب الوزارة حيث ذهبت مرة أخرى لتحاول الحصول على شيكها. لم تعد أم حسين راغبة في مواصلة العمل. بات جسمها منهكاً، غير أنها لم تكن لتستطيع البقاء دون راتبها من **البوست**، ما لم تحصل على معاشها التقاعدي. سألتُ عمر: "هل نستطيع مساعدتها؟" رفع عمر عينيه كما لو كان يريد أن يقول: **نستطيع أن نحاول. غير أننا إذا ذهبنا إلى الوزارة وحاولنا التدخل لمصلحتها، فإنهم سيكتشفون أنها تعمل في شركة أمريكية مما سيجعلها مستهدفة.**

كانت أم حسين تملك غسالة في غرفة صغيرة ملحقة بالمطبخ في مكتبنا الجديد، وهو مبنى سكني بغدادي انتقلنا إليه في تشرين الأول/أكتوبر 2004 بعد الهرب من الأمن المتضائل في الشيراتون. في عملية الانتقال فقدت أم حسين ميزاتها المتعلقة بالطبخ الأمر الذي جعلها أكثر مرارة فيما يخص حظها في الحياة. غير أننا كنا ببساطة قد فقدنا القدرة على تحمل المزيد من طعامها، وأتاح الانتقال لكارل فيك فرصة تحويل مسؤولياتها إلى غرفة الغسيل. وكارل الذي أصبح رئيس المكتب بعد رحيل راجيف الدائم في أيلول/سبتمبر 2004، حاول التخفيف من الضربة عن طريق شراء غسالة منزلية لأم حسين التي تركت العمل احتجاجاً. كان التصرف مجدياً عادت أم حسين في غضون أسبوعين، وقد أصبحت ملابسها أنظف وأرتب من أي وقت سابق. ومع أننا زودنا أم حسين بمجففة ملابس في المكتب، فقد كانت تخاف استعمالها، حتى بعد أن قضيت عشرين دقيقة صباح ذات يوم وأنا أبين لها كيف تعمل الآلة وأشرح لها أنها لن تنفجر على الرغم من ارتجاجها شبه العنيف في أثناء العمل. بعد عصرها للثياب كانت أم حسين تنشرها على حبل للغسيل أو على عدد من سقالات التجفيف المعدنية، وهو المكان الذي كان شاهداً على اجتماع عدداً من العاملين. أردت معرفة سبب الاجتماع واقتربت لأرى ما يجري بقدر أكبر من الوضوح. كانوا يحدقون بصمت في ملابسي الداخلية، التي كانت أم حسين قد رتبتها بعناية فوق صخرة التجفيف. هربت من المطبخ وتسلقت درجات الطابق العلوي بسرعة وصولاً إلى غرفة كارل.

اقتحمت الغرفة كإعصار وقلت: "هل ترغب في شراء بطاقة؟"

رافعاً رأسه عن الكمبيوتر الشخصي سأل كارل: "ماذا جرى. يا سبنو؟"

"من الواضح أنهم يقطعون التذاكر لعرض ملابسي الداخلية في غرفة الغسيل."

ضحك كارل. كان معتاداً على تمردي بشأن الإهانات الناجمة عن كوني المرأة الوحيدة في المكتب بعد إسقاط الأُمَّينْ من الحساب.

كنت أحب الأُمَّينْ، وهي الكلمة التي استخدمها للدلالة على أم محمد وأم حسين. كنت شديدة الولع بقضاء الوقت معهما في المطبخ. كانتا تشعرانني باستمرار بقائي في عالم معشر النساء. كانتا تقلقان إذا لم آكل، إذا جئت إلى المطبخ لتناول الغداء ورفعت غطاء الطنجرة، لمجرد إعادته والخروج دون تناول ولو ملعقة أرز واحدة. بوصفي من النباتيين لم أكن قادرة على تناول أطباق الفروج ولحم البقر التي كانتا تعدانها. أحياناً كنت أصنع لنفسي سندويشة طون بعد إخراج السمك من العلبة المعدنية ودسه في جيب الرغيف العراقي. كنت قد أضفت السمك والبيض إلى قائمة طعامي في العراق قطعاً للطريق على فقر الدم، الذي كثيراً ما كنت أتصارع معه حتى في الولايات المتحدة. باستمرار كانت أم محمد تراقبني وأنا أعد غدائي ثم تحاول مساعدتي بالقيام بالشيء نفسه في اليوم التالي مضيفة مسحتها الخاصة من الزيت النباتي. مثل جميع الطباخين العراقيين الجيدين، كانت الأُمّان مؤمنتين بالزيت، وبعد تناول طعامهما كثيراً ما كنت أمرض لساعات إلى أن يخرج الزيت من جهازي الهضمي بطريقة أو بأخرى. درج عمر على التذرع بهذا لجعل الأمّين تأخذان توجيهاته القاضية بعد طبخ طعامي بمرق اللحم، وهو ما كانتا تفعلانه بانتظام، عادتين ذلك طعاماً نباتياً، مأخذ الجد. كان يقول لهما: "تتسببان لها بالمرض" فيما كانتا تصغيان بحزن مطأطئتين رأسيهما. فأتدخل مقاطعة آملة أن تتفهما نبرة صوتي إن لم تتفهما كلماتي: "لا بأس، لم تتعايشا مع شخص مثلي." غير أن إخفاء حقيقة أنني كنت شاحبة ومرتجفة بعيد تقيؤ طبق الأرز المجلل باللحم الذي كان من إعدادهما. في المرة الأولى التي ذقت فيها أطباق أرز أم محمد تبين لي مباشرة أن الأرز هو من النوع "الملوث" ذلك النوع المعد بالأسلوب الأمريكي الجنوبي مع قطع من لحم

الكبد. قلت لأم محمد وأنا أعيد لها الصحن: "أنا لا أستطيع أن أتناول هذا. إنه أرز ملوث أو قذر".

شعرت بالمهانة وابتعدت وهي تصرخ "أم محمد رايس نووو ديرتي."

ناديتها بصوت مرتفع "لم أعن ذلك". غير أن محاولة التفسير كان من شأنها أن تبقى بلا جدوى.

كانت الأُمّان راغبتين في خدمتي مثل خدمتهما للرجال في المكتب، إلا أنني لم أكن مرتاحة إلى ذلك. مع مرور الزمن اعتادتا على التحاقي بهما في المطبخ لإعداد غدائي الخاص، بل ووجبة غداء لعمر الذي كان مولعاً بالبيزا التي كنت أصنعها له من السمون العراقي المجلل بجبنة الموزاريلا وصلصلة البندورة. كثيراً ما كانت الأُمّان تعدان لي حساء أو فاصولياء وتدعواننني إلى المطبخ لأعاين. كانت أم محمد ترفع غطاء الطنجرة الصغيرة وهي تقول: "انظري يا جاكي! لا لحم، لا فروج." أحياناً، شرط ألا أكون على موعد أو مشغولة بإرسال تقريري، كنت أبقى في المطبخ معهما وأساعد في فرط الفاصولياء الخضراء أو تقطيع البندورة للغداء. أخت أم محمد الأصغر، وجدان، معلمة حديقة الأطفال اختصاصاً، كانت أفضل من الاثنتين في الطبخ. كانت تؤمن بالتقديم: شرائح ليمون مزينة لطبق السلطة، رشات الفليفلة الحمراء مزينة لطبق الحمص. الشقيقتان كانتا تكثران من الكلام بالعربية في أثناء العمل، مع التحاق أم حسين التي كانت تدلي بدلوها صراخاً من غرفة الغسيل بين الحين والآخر.

لم يسبق لنا أن كنا بحاجة إلى عاملة غسيل في الشيراتون لأن العاملين في الفندق كانوا يوفرون خدمة تنظيف الثياب. وضماناً لتعقب قطع الملابس، درج عاملو الغسيل على كتابة رقم الغرفة على كل قطعة بالحبر الأزرق الناشف. وكلما غيرت الغرفة كنت أحصل على رقم جديد. على قميصي المفتوح المفضل خربشوا العدد "103" وهو رقم مقرّي الأول الموبوء بالبق. وحين انتقلت إلى 109 المجاور

لراجيف اكتفى أحدهم ببساطة، بشطب 103 وكتابة "109" فوق الشطب. ومع وصولي إلى 119 كانت الكتابة قد غطت ما لا يقل عن ثلث الجزء الأمامي من القميص. ثار غضب عمر حين رأى ما قد فعلوه. أعاد القميص وأمر عمال الغسيل بإزالة الأرقام. هددهم بالاتصال مع إدارة الفندق وجعلها تطردهم. وجدت هذا أقرب إلى الغلو وعبرت عن رأيي على مسامع عمر. كنت متعاطفة بعض الشيء مع قميصي التذكاري المطبوع بطابع الشيراتون. غير أن عمر أسكتني قائلاً: "أنا أعرف جماعتي" مستخدماً عبارة أبي سيف نفسها. بعد بضع ساعات عاد القميص وقد أزيلت منه الأرقام، مع خطاب اعتذار صادر عن مدير قسم الغسيل في الفندق. لم يعرفوا، على ما بدا، ما قد يفعلونه بقميص نسوي غير مطلوب دسه في السروال مثل القميص الرجالي. أمعنت النظر في القميص بعد انحدار مدير الغسيل على درجات السلم بسرعة. أطلقت قهقهة ثم عرضت القميص على عمر وأنا أقول: "انظر إلى ما فعلتْه جماعتك. بالغت في الحك إلى درجة إحداث ثقب في القميص." تجهم عمر.

لم أكن أتمتع بأي خصوصية ذات شأن في المكتب. سلَّمت بالأمر على مضض. ذات مرة قامت أم محمد باقتحام الحمام وأنا فيه بعيد انتهائي من "الدوش". كنت أنظر في المرآة محاولة اكتشاف ما إذا كانت مؤخرتي محافظة على رشاقتها بعد التوقف عن الجري عدداً من الأشهر. وَقَفَتْ تحدق. رجوتها وأنا أحاول تغطية نفسي بيدي: "اخرجي، يا أم محمد، أتوسل إليك!" تابعت النظر، قبل التراجع وإغلاق الباب قالت: "كم أنت جميلة يا جاكي!" عظيم، قلت لنفسي، لمعرفتي مدى رغبة أم محمد في أن أصبح بدينة. كان تعليقها يعني أن مؤخرتي باتت أكبر!

كنت قد حاولت قفل باب الحمام في المرة الأولى التي أخذت فيها "دوشاً". ولكن القفل تعطل واضطررت للتسلل من نافذة مفتوحة إلى السطح ومناداة الحراس ومطالبتهم بتمكيني من الدخول عبر باب آخر. ومع أن شباك الحمام

كان باهتاً ويحول دون الرؤية عملياً فإن الحراس أصروا على الحيلولة دون تعريض شرفي لأي مساس. كانوا قد ألزموا العامل بوضع شرشف من الخارج لتزويدي بحجاب إضافي. وقد قام العامل بإحكام تثبيت الحجاب على نحوٍ مبالغ فيه مما كان من شأنه أن يبقيني عاجزة عن الخروج لو تعطل القفل ثانية. لذا فقد تعين علي أن أبقي الباب دون قفل راجية ألا يقتحمه أحد.

غرفتي كانت الأولى التي جُهزت بالستائر بين غرف المكتب الجديد. توجس مهند من أن يقوم الحراس العراقيون على سطح بيت مجلة **تايم** المجاور بالتجسس علي عبر النوافذ الزجاجية الكبيرة لغرفة نومي. لم نكن نتعرض لقذائف المورتار في البيت كما كان يحصل في الشيراتون، فبدأت عملياً أنام في سريري في "الشورت" وقميص "تي ـ شيرت"، بدلاً من القميص ذي الكمين الطويلين والسروال العادي اللذين كنت أرتديهما في النهار. كان الانزلاق إلى السجادة بالملابس الكاملة أسهل في الشيراتون. كان محتوماً أن يأتي أحدهم يهزني كي يوقظني ويطلب مني التوجه إلى بيت الدرج، ذات ليلة كنت شديدة التعب ورفضت الذهاب. قائمة من وسط الغرفة ومعاودة الاستلقاء في كوة صغيرة أمام الحمام قلت: "هنا، سأنام هنا، لن أتحرك!". رد أحد الحراس مادا يده باتجاهي ولكن دون أن يجعلها تلمس خاصرتي: "لا، يا جاكي، لا". قلت: "يا للروعة!" حاملة وسادتي. وأضفت: "راجيف ليس هنا. سأنام في غرفته." غرفتي كانت على الواجهة مما جعلها هدفاً أسهل لقذائف المورتار بنظر الحراس. سمح لي الحراس بشغل غرفة راجيف التي كانت تواجه المنطقة الخضراء في الجهة الخلفية من الفندق، فتكورت على سريره ونمت ثلاث ساعات أخرى. فجراً، قمت وعدت إلى غرفتي، ما إن غفوت حتى أيقظني انفجار جديد. حملت وسادتي مرة أخرى وعدت إلى غرفة راجيف وبقيت فيها إلى أن بدأت نهاري.

صحيح أن قلقنا من التعرض لغزو المتمردين في المكتب الجديد كان أكبر بما لا يقاس من توجسنا من الاستهداف بقذائف المورتار، غير أننا لم نكن محصنين

ضد القنابل. ففي صباح أحد أيام كانون الأول/ديسمبر، انفجرت سيارة مفخخة في أحد الشوارع القريبة، حاطمة زجاج جميع نوافذ المكتب. حصل الانفجار بعيد الفجر. رئيس الحرس الليلي عندنا، صباح، قام باستعجال كل من كارل، أنتوني وأنا إلى بقعة أكثر أمناً خلف بئر السلم. كنت في الشورت والقميص الأبيض "التي شيرت" اللذين كنت نائمة فيهما، فخلع صباح معطفه الجلدي ولفني به. لم يستطع أن يفعل شيئاً لتغطية ساقي العاريتين فوقف أمامي لمنع الآخرين من رؤيتهما.

بنظر معظم العاملين العراقيين الذكور كنت في موقع وسط بين فتاة وامرأة، متجمدة عند نقطة مراهقة ما قبل البلوغ، وهو أمر بدا أسهل دون شك جراء ظهوري صغيرة في السن وولعي بالرياضة. لو كنت امرأة لبدوت مخلوقة جنسية، نامية، مادة معدة للزواج، زوج وعشيقة محتملة لأحدهم. أما كفتاة فقد بقيت قادرة على أن أكون أختاً، ابنة بريئة. أتقنت فن التعرف على الفرق والتصرف تبعاً لذلك. كلما عانقت رجلاً من العاملين، وهو أمر لم يكن يحصل إلا نادراً، كنت ألزمهم بأن ينادوني بالأخت. بأن يكرروا ذلك خلال ثواني العناق كي يتضح لكل مراقب بل وحتى للمعانق نفسه أن الأمر لم يكن إلا عناقاً عادياً بين أخ وأخت. وجدتني أكبت المرأة في داخلي كلما أطلت الإقامة في العراق، متبنية النظرة العراقية إلى نفسي بوصفي مخلوقة جنسية. وقد بالغت في تبني الفكرة إلى درجة أنني لم أشعر بالراحة من ارتداء "الشورت" أمام الناس إلا بعد مضي أشهر على عودتي إلى الولايات المتحدة. كنت أحس كما لو كنت عارية فعلاً وأنا في تلك القمصان المختصرة والضيقة بعد تغطية كتفي كل تلك الفترة الطويلة.

رغم بعض الإهانات الطارئة بين الحين والآخر بدا عمل المراسلة في العراق أسهل من عمل زميلها المراسل. زملائي الشباب كانوا يواجهون قدراً أكبر من الصعوبة في الاهتداء إلى نساء عراقيات يقبلن التحدث معهم. أما أنا فكنت أستطيع، بيسر، أن أتحدث مع الجنسين كليهما، ولاسيما إذا كنت برفقة لمى أو

هدى. ومع زيادة الوضع الأمني في العراق سوءاً، وجدت أيضاً أن من الأسلم أن يكون المرء امرأة. فطوال بقائي لافَّة رأسي بالغطاء كنت قادرة على الاختلاط بطريقة لم تكن متاحة لزملائي الشباب الأمريكيين. كان السائقون يستسهلون الإكثار من إيصالي إلى المنطقة الخضراء وإعادتي منها. كانوا أيضاً يحسون بقدر أكبر من الأمن معي أنا الملفوفة بجلبابي الإسلامي. إذا اعترضتنا مشكلة، كان أي رجل عراقي أقل نزوعاً إلى مجابهتي مباشرة. كنت أستطيع التظاهر بالحشمة المفرطة وعدم الجرأة على رد نظرة رجل لم يكن من أقاربي.

تطلب الأمر بعض التدريب. أنا لست خجولة بطبعي. صحيح أنني متحفظة، غير أني واثقة من نفسي. قامت زوج قسيس كنيستنا بتكليف أمي بإحدى المهام الاجتماعية وأنا في السادسة عشرة من العمر فتوليت وظيفتي الحقيقية الأولى مستشارة قرينات بمؤسسة تنظيم الأسرة في مسقط رأسنا الإيليوني. في ذلك الوقت لم يكن لدي أي مفتاح للغز سياسة تنظيم الأسرة، أي فكرة عن مدى الاستغراب الذي قد يثيره عمل مراهقة لوثرية متزمتة محمية بنمط تعليم مدرسة طائفية دينية في مثل تلك المؤسسة. لم أعرف سوى أن وظيفتي كانت تنطوي على التحدث مع النساء الصغيرات حول تقويم الذات واحترامها. كلما رأيت زوج قسيسنا كنت أحدق فيها متحدية. ومع ذلك فإن ما يشعرني بقدرٍ كبير من الخجل هو أنني أنا الأخرى التحقت بركب صديقاتي في عملية الاحتجاج على رغبة اثنتين من زميلات الصف في ارتداء "بنطالين" في حفلة رقص طلاب السنة الأخيرة. كنت في اللجنة المنظمة للحفلة وقد أجريت، منفعلة بضغوط القرينات المتعصبات في 1984، بالفعل، مقابلة مع الجريدة المحلية أعلنت فيها أن البنتين كانتا تحاولان تخريب الحفلة الموسيقية الراقصة. بعد الكلية هربت من إيلينوي إلى وظيفة في لوس آنجلوس، جزئياً لأنني كنت راغبة في أن أرى وأختبر ما افترضته النقيض لكل ما تعلمته من نشأتي في الغرب الأوسط. للمرة الأولى، شعرت كما لو كنت قد لُقنتها بوصفها حقائق علمية ـ أو دينية. السنوات التي

قضيتها في كاليفورنيا جعلتني أوسع أفقاً، إنساناً أكثر تسامحاً. خرجت من تجربتي هناك مثقلة بالامتنان لتنشئتي في الغرب الأوسط، لأساس الفضيلة والطيبة اللتين كنت قد تعلمتهما من أبوي ومجتمعي. بعد سنوات أدركت أنه لم أكن مضطرة للتخلي عن تلك المثل من أجل تفهم واستيعاب أناس مختلفين وأفكار مغايرة، من أجل أن أنظر إلى العالم كما ينبغي لأي إعلامي أن يحاول فعله، نظرة محايدة. **لوحة بيضاء.**

من الصعب في الغالب بالنسبة إلى من ليسوا إعلاميين، تدريباً أو بالفطرة، من لا يفكرون مثل الإعلاميين، أن يفهموا أن من الممكن وضع الأحاسيس والمشاعر جانباً، التحلي بالموضوعية الصارمة، بدرجة مئة بالمئة، كما كان راجيف يشجع أبا سيف أن يفعل. ليس الأمر سهلاً. كيف استطعت ألا أنفعل وأنا أرى هذا الاحتقار المجنون للحياة، هؤلاء الانتحاريين غير الآبهين بأن ضحاياهم عابرو سبيل، أطفال أبرياء؟ كيف استطعت أن ألغي مشاعري وأنا أرى جندياً جريحاً، نازفاً، تملكه الفزع؟ ذلك العنف كله جعلني أمرض حتى المعدة، جعلني أفقد عقلي. غير أنني لم أستطع أن أمكن تلك المشاعر من التأثير في تقاريري الصحفية. كنت ملزمة بأن أفهم الأسباب الكامنة وراء ما كان يحدث، لماذا كان المتمردون شديدي السخط، لماذا كان هناك هذا القدر الكبير من الحقد، لماذا كان الناس قادرين على الاستمرار في الحفاظ على الأمل. من الواضح أننا، بوصفنا صحفيين، بوصفنا بشراً، بوصفنا أناساً من هذا العالم، منحازون بالفطرة. ليس ثمة شيء اسمه لوحة بيضاء أو عقل محايد مئة بالمئة في الحقيقة. إننا نتاج المكان الذي كنا فيه، الأمور التي رأيناها، والأشياء التي تعلمناها. تكمن المهارة في التسليم بهذه الحقيقة ولكن دون التخلي في الوقت نفسه عن اعتماد فكرة اللوحة البيضاء، في أخذ نَفَس عميق وقول: "عال، سأطرح أسئلة، لن أناقش، لن أتابع أي فرضية، لن أغوص في الأمرمزودة بأي فكرة عما قد أتوصل إليه من استنتاج." إذا ما تخلى الصحفيون ببساطة عن

الرسالة بوصفها غاية مثالية يتعذر بلوغها، فإننا لن نتمكن بالمطلق من رؤية ما هو أبعد من تصوراتنا الخاصة وصولاً إلى قصص وإصغاءً إلى أناس، سواء أكنا متفقين معهم أم لا.

انطوى هذا على قدر استثنائي من الصعوبة فيما يخص علاقتي بالنساء العراقيات. من ناحية كنت أمقت مكانتهن الثانوية الواضحة في المجتمع، رغم إقراري بأن الوضع كان مختلفاً بين عائلة وأخرى. كنت أطحن أسناني في غضب مكتوم حين أرى فلاّحاً يسوق شاحنة صغيرة ـ زوجة راكبة في المؤخرة مع الخراف، وهو وحده في القمرة المحمية للقيادة. لم تكن لمى تخفي حنقها على الإطلاق. خلال الغداء في الفصول الأربعة بعمان وقع نظرها على رجل جلس إلى طاولة مع امرأة افترضنا أنها زوجه. كانت المرأة مغطاة بالخمار (**البرقة؟**)، نسخة أكمل عن **العباءة** حائلة دون رؤية وجهها.

بصقت لمى كلماتها وهي تقول: "انظري إلى ذلك الكلب، ذلك الخنزير الذي يُلبس زوجه ذلك الشيء. إنها لا تستطيع أن تأكل!"

قلت بنعومة: "أنا أيضاً أكره أن أرى ذلك حقاً، يا لمى، غير أننا لا نستطيع أن نصدر أحكاماً على الناس. أعني، ربما هي راغبة في ارتداء ذلك."

"ما من امرأة ترغب في ارتداء ذلك. سهل عليك أنت أن تقولي ما تقولينه. لا أحد يجبرك على ارتداء الحجاب."

ذكرتها: "أنت أيضاً، لا أحد يجبرك على ارتدائه"

"فقط حتى الآن!"

خلال الأشهر التسعة التي قضيتها في بغداد، لاحظت تزايد النساء المحجبات في الشارع، حتى في أحياء مثل الكرادة والمنصور اللذين كانا علمانيين إلى حد بعيد بعد الحرب. أفاد بسام وعمر بأن والدتيهما اللتين لم يسبق لهما أن

قامتا بتغطية رأسيهما قبل الغزو الأمريكي بدأتا تفعلان ذلك لدى الخروج إلى السوق خوفاً من النفوذ المتنامي للقيادات الإسلامية المحافظة، ولاسيما في الجنوب العراقي الشيعي، ومن متطرفين متزمتين قابعين وراء عناصر التمرد. ما لبث غطاء الرأس أن أصبح ملحقاً واقياً للنساء في العراق. في مقابلة صحفية حول هذا التوجه قال أستاذ لمادة علم النفس بجامعة بغداد يدعى فاضل شاكر إن النساء يرتدين الحجاب للتخفي أو طلباً للستر، حماية لأنفسهن. وأضاف شاكر أن الحجاب يشكل أفضل أساليب الوقاية قائلاً: "إن النساء يعتقدون بأن من شأن الحجاب أن يشكل السور الذي يمنع الناس من النظر إليهن." تفهمت الأمر جيداً. لم أكن ملزمة بارتداء الحجاب في العراق، على الرغم من أن المرء يستطيع بالتأكيد أن يجادل بأن الخوف من ارتدائه قد ألغى مثل ذلك الخيار، وتلك وجهة نظر عبرتْ عنها على مسامعي أعداد غير قليلة من العراقيات المعتدلات. أنا أيضاً كنت أفضل أن أكون متواضعة ومحتشمة من حيث الملبس في الفندق وفي مكتبنا. كنت أحس بأني ملزمة باحترام القواعد المجتمعية حتى لو كنت أكرهها.

في أحد أيامي الأولى بالمكتب، سألت هدى: "لماذا، إذن، لا ترتدين قميصاً بكمين قصيرين؟ لماذا تضعين غطاء الرأس؟ تبدين حديثة إلى حد بعيد، أم أنا مخطئة؟"

لم تكن هدى الشيعية المتدينة تضع غطاء الرأس خوفاً؛ كانت تضعه امتثالاً للشرع، طاعة للرب. وقد قالت هدى إنها مؤمنة بأن على النساء أن يغطين شعرهن لإخفاء جمالهن تجنباً لإغواء الرجال.

سألتها: "ولكن ألا يقع جزء من مسؤولية كبت أي عواطف شاذة وغير مناسبة على الرجال؟"

أجابت: "إنهم شديدو الضعف."

لم أفهم ما قصدته في أعماقي. بدا لي تفسيرها عبثياً لا معنى له، غير أنها كانت مؤمنة به. إنها مسألة إيمان. دفعني ذلك إلى التساؤل عما قربنا، هدى وأنا، إحدانا من الأخرى. بدا هذا الاختلاف أشبه بهوة غير قابلة للجسر. كنت أتساءل عما إذا كانت تعدّني جاهلة أو فاسقة، بمعنى من المعاني، لعدم تغطيتي لرأسي. كنت أخاف أن أسأل، أخاف جوابها. آخر المطاف، لم أكن مضطرة للاهتمام بالأمر. لا فرق بين رأس دون غطاء من ناحية وآخر بغطاء من ناحية ثانية. كلانا ننتمي إلى الأخوية الكونية للنساء، تلك الأخوية المحتضنة إياي ـ أقله بجزئي الأكبر.

تولى سائقنا الليلي رُفْعَت ورئيس حراستنا الليلية صباح مهمة إيصالي إلى المطار في كانون الثاني/يناير للسفر جواً إلى الشمال العراقي الخاضع لحكم الأكراد، اعتماداً لوسيلة آمن وأسرع للالتفاف على بعقوبة وكركوك، وهما اثنتان من المدن العراقية الموبوءة بالمتمردين. كانت الطريق إلى المطار هي الأخطر في العراق، وكان نَفَسي ينقطع كلما تعين علينا أن نقطع تلك المسافة البالغة ميلاً واحداً والمنتهية بنقطة تفتيش عسكرية. مجرد وصولي إلى نقطة التفتيش لم يكن يشعرني بالاطمئنان الكلي لأن النقطة نفسها كان أحد أهداف الانتحاريين. تعين علينا أن نطفئ المحرك وننتظر قيام الكلاب البوليسية بالتحري والسماح لنا بالتقدم إلى رتل آخر انتظاراً للتفتيش. كان رفعت الذي كان سائقاً لدى شركة استيراد وتصدير مصرية قبل الحرب يترنم بأناشيد دينية كلما اقتربنا من نقطة التفتيش. كانت همهماته وأناشيده ترهق أعصابي. كان المفروض أن يتولى مهمة المرافق المهدئ في الطيران، مطمئناً إياي إلى أن المطبات لم تكن إلا نوعاً من الاضطراب الطارئ. غير أنه كان، بدلاً من ذلك، يتصرف كما لو كان مشغولاً بالاستعداد للموت.

في أي يوم مزدحم، كان من شأن عبور نقطة التفتيش أن يستغرق ما لا يقل عن ثلاث ساعات. وبعد الوصول إلى حوزة مكشوفة، تعين علينا أن ننزل من

السيارات ونخضع للتفتيش الشخصي قبل أن يُسمح لنا بالصعود إلى الحافلة المخصصة للنقل إلى المطار. على الرغم من أن كلاً من رفعت وصباح لم يكونا مرافقينني إلى المطار، فإنهما ساعداني في نقل حقائبي إلى طاولة التفتيش. ثمة كانت طاولة للرجال وأخرى للنساء، من منطلق أن أي امرأة عراقية محترمة لم تكن لترضى إزاء عبث رجل بحوائجها الخاصة الحميمية. والنساء اللواتي كن يمارسن عمليات تفتيش الأمتعة كن يغطين رؤوسهن ولا يعرفن. إلا القليل من الإنجليزية. كن مستخدمات عقود لدى الشركة الأمنية الموفرة لأمن المطار. بيدين داخل قفازين عبثت المفتشة بمحتويات حقيبتي، مستعرضة أدوات تزيني ومتحسسة ملابسي. في قعر الحقيبة. وجدت صماماً قطنياً. حملته في وجهي بحركة استفسارية. قلت لها: "إنه صمام". هزت رأسها. لم تعن الكلمة أي شيء بالنسبة إليها. راحت تفكك الغرض. أمرتها همساً "اتركيه من يدك!" شعر رفعت وصباح بأن هناك مشكلة واقتربا أكثر لإمعان النظر في صاروخي القطني. ظلت المفتشة بعيدة عن امتلاك أي فكرة عما كان بيدها. أخيراً، عاجزة عن التواصل وشديدة الحرص على وضع حد لإذلالي، صرخت بأعلى صوتي: "نزف نسائي! دم! عادة شهرية!" احمرت خجلاً وأعادت إقحام "الفُوَط" في الحقيبة. تمتمت وأنا أودع رفعت وصباحاً: "بحق السماء!".

حملت حقائبي الخاصة إلى الحافلة.

أحياناً كانت تتصل فيما الحراس الأمنيون على بابها مطالبينها، بإلحاح، بأن تتبعهم إلى بئر سلم الشيراتون انتظاراً لانتهاء الهجوم. أحياناً أخرى لم أكن أسمع صوتها إلى ما بعد ساعات طويلة لدى السماح لها بالعودة إلى غرفتها. في العاصمة التي هي على مسافة آلاف الأميال بدا

دوي الانفجارات أشبه بخفقات قلب مخنوقة، إيقاعاً خلفياً لنبضي أنا المتسارع فزعاً. ربما كان من شأن اتصالات أختي أن توقظني من النوم، غير أنها كانت تعيش قبلي بتسع ساعات مما جعل بدء هجمات المورتار الليلية في بغداد تتزامن في الغالب مع ساعات بعد الظهر المتأخر في واشنطن. كثيراً ما كنت ألتحف بطانية للتحدث معها، بعينين مغمضتين إزاء شمس بدت شديدة السطوع بالنسبة إلى همسها الملحاح والمتعجل.

أواخر أيلول/سبتمبر، بعد يوم خريفي مشرق، يكاد أن يكون مثالياً، اتصلتْ باكية. جاهدت لأفهم ما حصل وهي تكرر عبارات مثقلة بأطنان من الرعب: "كدنا نموت." "كنا متحلقين." "اللهيب حرق رقابنا." "الله". "الرب". لم أستطع أن أفهم شيئاً مما كانت تقوله لي. أمرتها: "تمهلي! تكلمي ببطء!" غير أنها لم تستطع. كانت تلهث رعباً مما بالكاد نجت منه. للمرة الأوليفيما أعتقد أدركت أختي احتمال موتها الواقعي في العراق. أنا أيضاً أدركت ذلك عبر فزعها المشوش. أيضاً بعد العودة إلى غرفتها، وبقائها وحيدة، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تعرضت فيها للانهيار. كنت الشاهدة الوحيدة. مع حلول اليوم التالي، مع ظهور التقرير التالي على صفحات البوست، كانت ستعود هي هي، متماسكة وممسكة بزمام الأمور. فقط أدركت الهوة المتسعة بين خطوط كلماتها العامة وذلك القاع السحيق من الخوف الذي كانت تهوي نحو أعماقه.

فجأة سالت: "هل شعرت بالأمر، يا جني؟ أعلم أنه ينبغي أن تكوني قد فعلت."

كنت أعرف ما كانت تسأل عنه. هل فعلت "قوة التوأمة" فعلها؟ هل مارست تلك الرابطة غير القابلة للتفسير التي جعلتني أشعر بما شعرت به رغم عدم وجودي هناك، نفوذها؟ خلال حياتنا، كلما تعرضت إحدانا لأي

خطر أو ألم كانت الثانية تعلم بالأمر حَدْساً، على نحوٍ غريزي. إذا أُصبت بالرشح، كانت هي تصاب بالمغص. مرة حين جُرحتْ ركبتي في مباراة كرة القدم، آلمتها ركبتها أياماً. قبل سنوات تعرضتْ لحادث سيارة وكُسرت ذراعها. لحظة وقوع الحادثة كنت أبعث إليها برسالة صوتية أنصحها فيها بمعاينة الموقف لأن شيئاً بدا مختلاً.

الآن، هذه المرة، أوشكتْ على الموت. هل شعرتُ بالأمر حدساً؟ هل كان عالمي قد بدا متوقفاً للحظة لدى انفجار قذيفة المورتار عند رأسها؟

أكدت لها مطمئنة إياها: "بالطبع علمت بذلك. ألستِ توأمتي؟"

غير أنني بقيت، بعد إنهاء المكالمة، تحت البطانية شديدة الخجل من مواجهة ضوء النهار. لم أكن قد شعرتُ بأي شيء على الإطلاق.

openkandl.com